جان دوتور و « مركّب قيصر »

[سيختص الأستاذ إبتيامبل أستاذ الأدب الفرنسى بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول قراء هذه المجلة بين حين وحين بفصل نقدى يعرض فيه كتاباً من الكتب الفرنسية المعاصرة .]

عند مامنحت جائزة ستندال لأول مرة سنة ١٩٤٦ قسمت بين رنيه ماسون عن قصته « إلى الشرطة وإلى اللصوص » وبين جان دوتور عن مجموعة مقالاته المعنونة : « مركّب قيصر » . وقد تحدثت عنها باريس كثيراً .

ولا نعرف عن المؤلف إلا القليل ، اللهم إلا أنه حارب وهو ما زال حديث السن فى سنة ١٩٤٠ ، واشترك فى المقاومة السرية ، وقبض عليه الجستابو وحكم عليه بالإعدام . وفى اليوم السابق لتنفيذ الحكم نجح فى الهرب . وها هو ذا كتابه الأول الذى امتدح فيه روجيه كايوا كتابا من أمهات الكتب .

ونحن إذا كنا لا ندرى فى الواقع إلا القليل عن حياة المؤلف ، فإننا على العكس نعرف ما تهمنا معرفته عنه . نعرف مزاجه ، ونعرف ما يعشقه ، نعرف نقائصه وآراءه . فهذا الكاتب الذى يحتقر إبداء العواطف وإظهارها ، وهذا القاضى الصارم الذى لا يرحم كتّاب اليوميات المزدهرة فى عصرنا ، ماذا يعطينا هو غيرُ وثيقة عن نفسه فى كتابه « مركب قيصر » ؟ وهذه المجموعة من المقالات قسمان : أحدهما أكثر إبرازا لشخصية الكاتب ، وعنوانه « تعريف » . والثانى وعنوانه « منشور » يعرض آراء الكاتب عن المجد ، وعن الكلمات التى لاتقع موقعاً حسنا فى الآذان ، وعن العبقرية ، وعن الحب باعتباره أحد الفنون الجميلة ، وعن الأسلوب ، وعن المساواة فى السمو الخ . . .

فهى فى مجموعها إذن وثيقة عن عقل وقلب رجل يريد أن يكون عظيما ،

ويؤمن أنه كذلك . ولو قلنا : يحسب نفسه كذلك لأخطأنا فى الكشف عن نفسية دوتور . وهذا الرجل المتجرد من كل حياء زائف ، ينبئنا بذلك من أول كلمة فى الكتاب : مركّب قيصر . ثم إنه لايخفى علينا بعدئذ أنه يسخط بل يرثى منذ عهد بعيد لأولئك المساكين الذين كانوا يتشككون فى عبقريته . وسيقول المتواضعون الزائفون : يالله من وقح ، وسيردد حكماء البورجوازيين : « لايقول الرجل الذكى حقاً عن نفسه إنه كذلك . . . » ولو ردّ دوتور على هذا لقال إن ديدرو لم يكن ليحلل قط العبقرية بتلك الدقة وذلك الاقتناع ، اللذين نعهدهما فيه ، لو لم يكن شاعراً وواثقاً أن له منهما النصيب الوافر . أو لعاد بنا إلى جريكو وقد كان لايدع أحداً من زبائنه ، الذين يساومونه فيما يطلبه من ثمن ، يجهل عبقريته . ولنتفق على أن دوتور يسخطنا أحياناً بكبريائه الساذجة . أنصت إليه يقول : « مجد رجل مثل جوجان أو پسارو ، ذلك المجد الذى كنت أستطيع بلوغه بسهولة . . . »

أفّ له . . . ! ولربما قال أيضاً : مجد رافايل أو پوسان ! وما أيسر مايعزّى نفسه لشعوره بان بعض مزايا ستندال تنقصه ، فإنه عندئذ يفكر فيما يدعوه « المقدرات الأخرى » التى لم يكن لستندال منها نصيب فهو بالتأكيد « ناقص أشد النقص » ، ولكن جان دوتور يمتاز بتوافرها فيه . ثم إنه يصدر أحكامه سريعاً ، ويشير أكثر من اللازم إلى المغفلين الذين يقولون كذا ، وإلى الحمقى الذين يدّعون كذا ، وإلى البسطاء الذين يؤكدون كذا . . .

ورغم ذلك ، وبعد رحلة عجيبة ، يعود دوتور إلى التواضع (وهو حين يمتزج بالكبرياء يأتى بأعظم ماتنتجه العبقرية) . وذلك الذى يريد أن يكتب مثل ديدرو ، وأن يصور مثل پوسان ، وأن يحكم مثل فردريك الثانى ، كيف يستطيع هذا الرجل ألا ينتهى بالظهور بقيمته الحقة ، وبالوصول فى النهاية إلى التواضع ؟ ثم إنه من الخير أن يظهر فى هذا العالم الذى لايقدر إلا أصحاب المواهب العادية من العامة والتجار ، رجل سبق له أن خاطر بحياته من أجل حريات يجب تسميتها من ناحية ما الحريات الديمقراطية ، فيدعونا إلى احترام العظماء من الرجال . ثم إنه ليسرنا أن نجد فى هذا العالم الذى ألقى بزمامه إلى الأحزاب و « المودات » والإعلانات ، فرداً مستقلا ، لا هو مع اليمين ولا مع اليسار ، ولا هو من الأحرار ولا من الفاشيين ، رجلا متجرداً من كل شىء

حتى من المخاطر التى تعرّض لها والتى نادراً مايذكرها لدرجة أن أراد البعض أن يلوموا فيه رجلا من الهواة ، من نوع مونترلان . وأخيراً يلذ لنا فى هذا العالم الذى يتجه فيه الكتّاب إلى تملق الأميين أن نقرأ كتابا لا ارتجال فيه . يقول دوتور : « إنى أبغض قراءة ما أكتبه أو تصحيحه . » كلا ! إن دوتور هنا يخدعنا ؛ فهو يعلم تماما أنه يصحح ما يكتبه ، وحسناً مايفعل .

وفى هذا الكتاب شئ أكثر من وثيقة عن أولئك الذين يخضعون لمركّب قيصر أو يتعهدونه . ذلك أنه سيبقى كإحدى العلائم الأولى لهذا التحول البطئ الذى يسيّر ، منذ عشرين عاما ورغم ما يبدو من مظاهر ، كل القوى الحيوية فى فرنسا الأدبية نحو نوع من الكلاسية . فها هو ذا أخيرا أثر جهود أندريه جيد و « المجلة الفرنسية الجديدة » *La Nouvelle Revue Française* وبعد مقالات روجيه كايوا ، وقصص جاك لومارشان ، يأتى كتاب دوتور ببعض القيم التى تعترف بها كل العهود الكلاسية . ويقول دوتور : يجب تمرين الفكر بطريقة عسكرية خشنة . يجب أن نستبعد اللطف والظرف والطراءة . . . وإذن فعلينا أن نعمل طويلا . . . فالعمل الفنى والتصميم على الخلق يجعلان الفكر ثابتا متينا . . . والعمل الذى لا يتلوه نجاح لا قيمة له . ولا أريد أن أقول إن ذلك العمل لم يُفد اللاشعور أو الصنعة الفنية ، وإنما أريد فقط ألا نقيم وزنا لمثل ذلك العمل ؛ لأن النتيجة وحدها هى التى يحسب لها حساب فى الفن ، كما هو الحال فى السياسة وفى جميع المظاهر العقلية السامية . ولكن احترامه للعقل لا يبلغ به حد العبادة للمذهب العقلى حيث لا تجد العواطف الفياضة محلا لها . وهو يقول : « إذا كان موضوع الفلسفة رائعا نبيلا ، وإذا كان كبار الفلاسفة من عظماء المؤلفين ، فليس هناك من هم أشد حمقا من مدرسى الفلسفة الذين ليسوا بفلاسفة إلا مدرسى الأدب الذين يعلّمون فنا لا يمارسونه . » وعلينا بالعقل ودائما العقل (وكل ما ليس بمحسوس يجب أن يمر أولاً بالعقل لتكون له قيمة) . ولكنه يريد العقل الذى يبنى على أساس من المادة : « يجب أن نكون واقعيين وألاّ نبعد لحظة واحدة عن الأثر المباشر البسيط لما تؤديه عيوننا وأيدينا وآذاننا وألسنتنا ونوعنا . فستندال يطبق أسلوبه الواقعى على موضوعات واقعية . ولكن علينا أيضا أن نعبر عن المعنوى بكلمات واقعية . »

وطريقة دوتور توضح هذه القواعد السليمة . وإذا كانت مقالاته تذكرنا بمقالات مونتينى أو تعود لها ، فإن لغته الذاتية هى لغة رجل يقدر بنوع خاص ستندال وديدرو وريفارول . وهو يكتب دون استعمال الصفات والظروف ، ويستخدم كلمات ملموسة وتعبيرات عادية بتلك السهولة وذلك الطبع اللذين ينتجهما عمل شاق مضن ، ويبنى لنفسه من ذلك أسلوبا ذاتيا هو أسلوب الجميع ولكنه ليس أسلوب أى شخص . والتشدد لديه لا يمنع قط قفزات الفكر ، ولكنه على العكس يساعدها ويقويها . ولا يعمل العقل إلا بين أشد الأحاسيس وأقواها .

يقولون إن عصفوراً واحداً من عصافير الربيع لا يأتى بالربيع . ونحن لا نجهل أن بعض الفنانين احتفظوا بآرائهم الخاصة ، فى كل زمان وفى كل مكان ، وفى شر أوقات المبالغات والتصنع . ولكن كتب ألبير كامو وروجيه كايوا هى طيور الربيع . وكذلك كتب جاك لومارشان وخاصة كتب جان بولان . ولقد رأينا إلى أى درك تهبط الأمم ، التى تقول باحتقار العقل ، هبوطا كأن لامفر منه . فكيف لا ننتظر أن يُبعث الفن ، وأن تنمو حضارة يجد فيها العقل كل حقوقه ؟ لنا أن نرجو ذلك فى فرنسا ، وأن ننتظر ذلك العهد الكلاسى الجديد فى مستقبل قريب لو تأكدنا أن قوى البربرية المتصاعدة ستدع لنا الوقت . وإن كتبا مثل كتاب جان دوتور ، هى فى نفس الوقت دفاع وتأييد لذلك . ولكن لكى نأتى بالربيع ، كم يلزمنا من طيوره ؟

ابتياصيل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده